المديول والبانكة

دكتور عبد الحليم ابراهيم عبد الحليم
مدرس بقسم الهندسة المعمارية

خواطر حول مفاهيم العمارة الدولية والعمارة الحضارية

فى صيف عام ١٩٧٩ عدت إلى مصر بعد غيبة تخطت اعوام عشرة ، شهدت فيها العمارة انتقالة كبيرة مما عرف بالعمارة الحديثة ، وشعاراتها السائدة تحت راية " الدولية " ، أو " العالمية " إلى توجه ثورى يعترف بالخصوصية والذاتية الحضارية للمجتمعات المختلفة ومن ثم يدعو إلى عمارة تعبر عن هذه الهوية وتتفاعل مع بيئتها الطبيعية والحضارية .. لم يكن ذلك التوجه الجديد قد رفع لنفسه راية بديلة لرايه " الدولية " – أو طرح شعارات تحتل مكان الشعارات القائمه ، ولكن كان بلا شك قد هز اركان " الدولية " أو " العالمية " المعمارية هزا شديدا . وحسبت أن هذه الغيبة الطويلة عن مصر ، لابد وانها قد حجبت عنى تغييرا وتحولا موازيا، وان لم يكن مماثلا .. فقد مرت مصر فى الستينات بأحداث جسام سواء على الصعيد الاجتماعى ، أو الفكرى أو السياسى ، وكانت العقول والافئدة تتجه نحو التغيير والتعبير عنه . حسبت ان العمارة سيكون لها النصيب الاوفر من ذلك التعبير سواء فى التعليم أو الممارسة .

ولكن جل ما كان حسبى بعيدا عن الواقع :

صادف يوم وصولى موعد المعرض السنوى للطلاب بقسم العمارة ، فحمدت الله على هذه المصادفة ، فسأرى فى لحظة وصولى حصاد عام كامل من جهد الطلاب،دخلت قاعة المعرض .. وقفت مبهوتا ، فقد عمنى احساسى بتوقف الزمن وكأننى لم اغادر مصر طيلة هذه السنين ! نفس اللوحات ببياضها الناصع – مسطرة من اولها إلى أخرها بذلك القانون الصارم وكأنه مفروض علينا : الجرد : Grid . هذه مشروعات الطلاب المتوفقين أوائل الدفعات تصطف امامى لتعلن حالة عجيبة من السكون الفكرى الذى حرت فى أن افهم له تفسيرا أو تعليلا .. واقتربت من أحدهم ، وعرفته بنفسى وطلبت منه أن يشرح لى فكرة مشروعة علنى استشف من فكره ما تخفيه هذه الواجهات الممتدة من الزجاج ، والسر فى أن أعمدة مبانيه قد اصطفت فى انضباط لا يختل بتنوع الوظيفة ، ولا يتغير ليفسح مكانا لحدث فى المبنى أو يمايزه عن آخر .. لا تباين أو تناقض ، أو حتى اشارة فى هذه الاصطفافة العسكرية للتنويعات اللانهائية فى انساق الاستعمال بالمكان .. أو اعتبار لانماط للحياه العامة والتى لابد أن يعبر عنها المبنى فى انشائه وفراغاته ورموزه ، ناهيك عن مواده وتقنياته .

نظر إلى المعيد الشاب شاردا متحيرا ، أو ربما مستغربا متعجبا – وأجاب باقتضاب شديد على تساؤلاتى وبدا وكأنه يدلى إلى بسر شخصى ، أو يطلق من بين شفتيه وصفة سحرية ؛ قال : إن فكرته مبنية على الـ " يونيفرسال سباس " . وصمت . وكأنه قال كل شىء .. وحين بدا على عدم الفهم نظر إلى فى حيرة يملؤ نصفها التعجب والنصف الثانى التشكك فى قدرتى على فهم الطلسم أو الايقونة التى اباح بسرها لى : اليونيفرسال سباس " .

والحقيقة اننى لم افهم ماذا قصد " باليونيفرسال سباس " ، وكيف لهذا الطلسم أن يكون اساسا فكريا لبن عام بمصر التى تتمخض كل مكوناتها الشعبية عن هوية وذاتية حضارية ، أو هكذا حسبت .. فبدأت معه حوارا حسبت انه سيوضح الامور : سألت عن هذه الخطوط المتراصه افقيا ورأسيا والتى تملؤ لوحته فى رضوخ وامتثال لا تحيد عنه سواء فى داخل المبنى أو خارجه ، فى ادق عناصره أو فى اكثرها عمومية ، فى مركزه أو فى اطرافه .. وسألت ما هذا . قال الفتى مستنكرا : " دى الجرد " .. ولما لما يبدو على وجهى تغير ينم عن أى درجه من الفهم لما يقول استطرد شارحا انه لابد لكى ينقل فكرة اليونيفرسال سباس إلى البلان أن يرسم الجرد على الشاسية وقلت نعم فهمت .. ولكن لماذا .. قال مستمرا فى بلاغته المعمارية " علشان المديول بتاعى ينضبط " .. وقلت أه : من هنا نبدأ . حييت الفتى فقد كان دمثا متأدبا – وابتعدت قليلا فى زحام المعرض التمس بعض الوضوح ، وجالت فى خاطرى عشرات الرؤى وأنا احاول أن اشغل نفسى بمراقبة الوجوه فى المعرض السنوى للقسم : ايدرك هؤلاء الطلاب موقع اعمالهم مما يحدث للعمارة فى العالم .. هذه هى ايقونات الدولية المعمارية : المديول ، والجرد ، واليونيفرسال سباس ترفع فى اعمالهم إلى درجة التميز والابداع .. وهى ذات الرموز التى أنهال عليها ابناؤها من معمارى الغرب ومفكريه شجبا ونقدا وهجوما .. بل وتحطيما فى بعض الأحيان . أيرى ذلك المهندس الشاب اين يقع عمله من ثورة طلاب مدرسة الفنون الجميلة العليا بباريس عام ١٩٦٨ ، وكيف انطلقت هذه الشرارة الداعية لمراجعة كل المبادىء التى قامت عليها العمارة الحديثة والدولية إلى الولايات المتحدة لتتشابك مع حركة حقوق الانسان التى عقبت حرب الفيتنام لتشكل واحدة من أهم الحركات الفكرية فى تاريخ مدارس العمارة فى الولايات المتحدة .. ماذا سيقول لو وضعت امامه صورة لساحة نيرون بالقصر الكبير بروما – ثم عبرت به حتى عصر النهضة ثم عصر الثورة الصناعية إلى نشأة الدولية المعمارية .. ثم .. ماذا لو وضعنا امامه صورة لمعهد ريشارد لنبسوث "طبيه بجامعة بنلسفانيا .. ورأينا النقلة التى حدثت للمديول . ثم أخيرا .. ماذا لو أطلعناه على اعمال رواد الثورة . أو الردة الجديدة .. أو ما يسمون بالكلاسيكيون الجدد .. مثلا عمل من اعمال ميخائيل جراف

ولكن ماذا لو أدار هذا المعمارى الشاب ظهره لهذه المراجعة التى يعيشها الغرب لمديوله ومفاهيمه : وحاول أن يستقرأ فى تراث امته هو وحضارتها اصولا لتنظيم الفراغ .. فما هو المقابل للمديول .. وما هو المفهوم الذى يستخرجه من هذا المقابل .. فلو نظر مثلا لتلك اللوحة فى ازبكستان والتى كان يستعين بها المعمارى فى البناء لرأى شبكة مثلها مثل " الجرد " التى يستخدمها هو اليوم ، ولكنه فى نفس الوقت لتبين أن الوحدة الفراغية التى تتشكل على هذه الشبكة تختلف عن المديول .. فهى هنا مستقلة عن الشبكة – ولكنها ايضا متصلة بها ... مستقلة فى كونها قادرة أن تشكل تنويعات متباينة للفراغ ما بين مثمن ذو

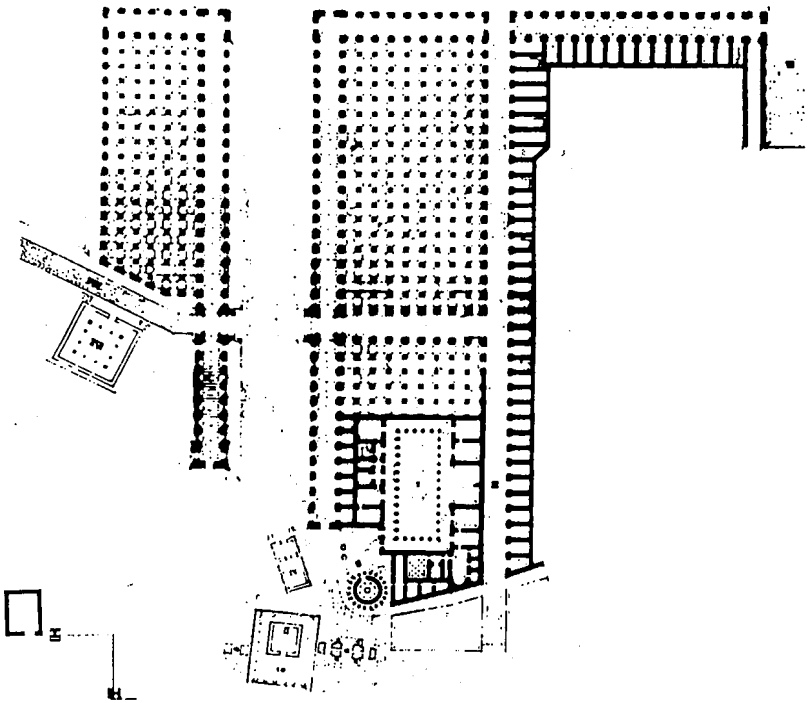

(١) ساحة نيرون بالقصر الكبير بروما ..

Matrix of Man. **S. Moholy Nagy.** F. Praeger. N.Y. 1969. P.131

ıe Neronian portico, which stood within the vast grounds
ero's palace, symbolized the discontinuity of the Roman
or capital city. It connected nothing, and by its excessive
h tried to create the mysterious half-light of the Egyptian
..stYle hall.

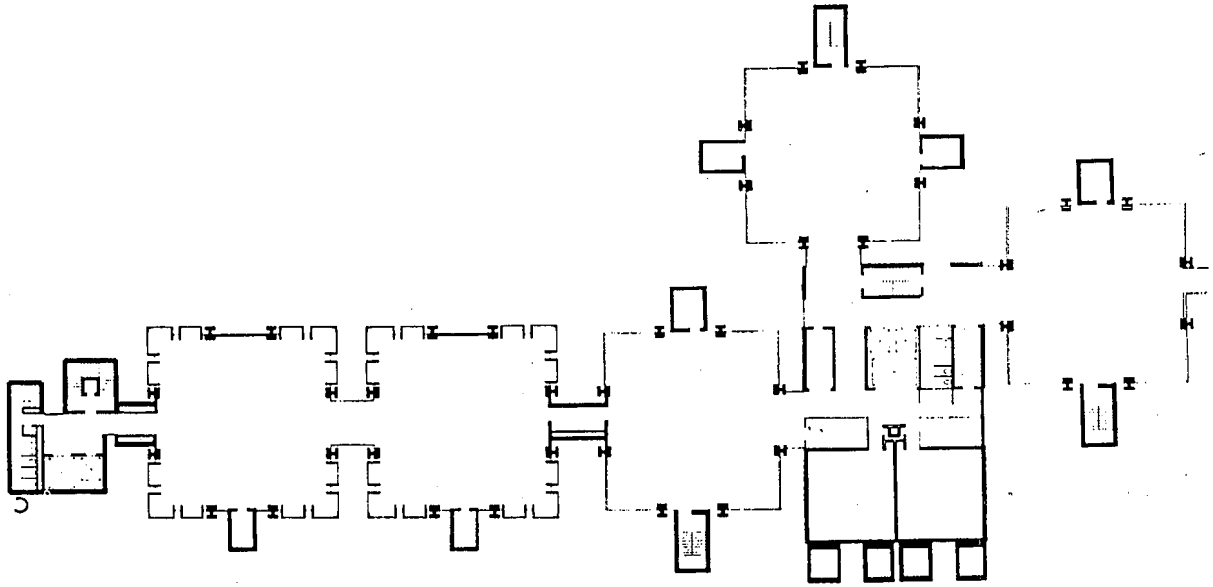

(٢) معهد ريتشارد ، للبحوث الطبيه بجامعة بنسلفانيا .
للمعارى لويس خان

ايوانين ، أو مسدس ذو اربعة ايوانات .. ولكنها فى ذات الوقت وحدة متسقة ومنتظمة بحكم اتصالها بالشبكة .. الهام هنا التلازم بين استقلال التشكيل من جهه ، والتزام التنظيم والبناء من جهه أخرى لا يكمن فى التنويعات الفراغية الناتجة فحسب ولكن والأهم هو فى السمو بمفهوم الفراغ إلى حس بالتوحيد بين الجزء والكل يقرب المبنى من ترجمة اعمق ، واقتراب اكثر الى مفهوم الوجود فى حضارتنا والذى يرتكز على فكره التوحيد .

بمعنى آخر فإن " **البائكة** " ، (وهو اسم هذه الوحدة) تمتثل لطبيعة المادة سواء كانت حجرا أو طوبا وكذلك لطريقة الانشاء وتقنيته وهذا ما يتمثل فى الشبكة ، ولكن كوحدة فراغية فانها باستقلالها عن الشبكة تنصاع لارادة المعمارى فى التشكيل والتجميع والتى ينظمها مبدأ التوحيد ..

البائكة هى بديل – أو مقابل حضارى للمديول .
والتوحيد هو مفهومنا البديل لليونقرسال سباس

لننظر مثلا لمبنى تاج محل بالهند :

١ – المسقط الافقى ينم عن اتساق وتوحد قد تكون تنظمة شبكة خفية مثل تلك التى رأيناها فى رسم المعمار المغولى – ولكن حس التوحد فى اتجاه بائكاته نحو مركز واحد هو ما يعطى للمبنى حسا اسمى للنظام .. وحس فنى لمفهوم التوحيد .

٢ – الفارق هنا بين النظام – او الوحدة التى تنشىء عن المديول مقابلا بالبائكه يمكن إن يرى كفارق بين مفهومين للوحدة – أو The unity

فاذا كانت الوحدة فى المفهوم المديولى تأتى بالتكرار .. أو التقسيم وكلها عمليات فراغية تستلزم فى النهاية إحداثًا للوحدة خلال تكامل الاجزاء .. فى كل واحد خلال الشبكة المديولية – أو خلال مفاهيم الفراغ الأخرى – التى تقع ايضا تحت مفهوم **التكامل** للأجزاء Integration

فانه فى حالة البائكة فان الوحدة تأتى بالتحولات الداخلية للفراغ ، أن المبنى يبدأ من نقطة أو مفهوم واحد .. منه **تتفاضل** الأجزاء .. وأن كل جزء فى صفاته له استقلاله .. ولكن توحده يأتى من أنه جزء من ذلك الكل .. وهى عملية اشبه بعمليات التفاضل الرياضية Diffrentiation

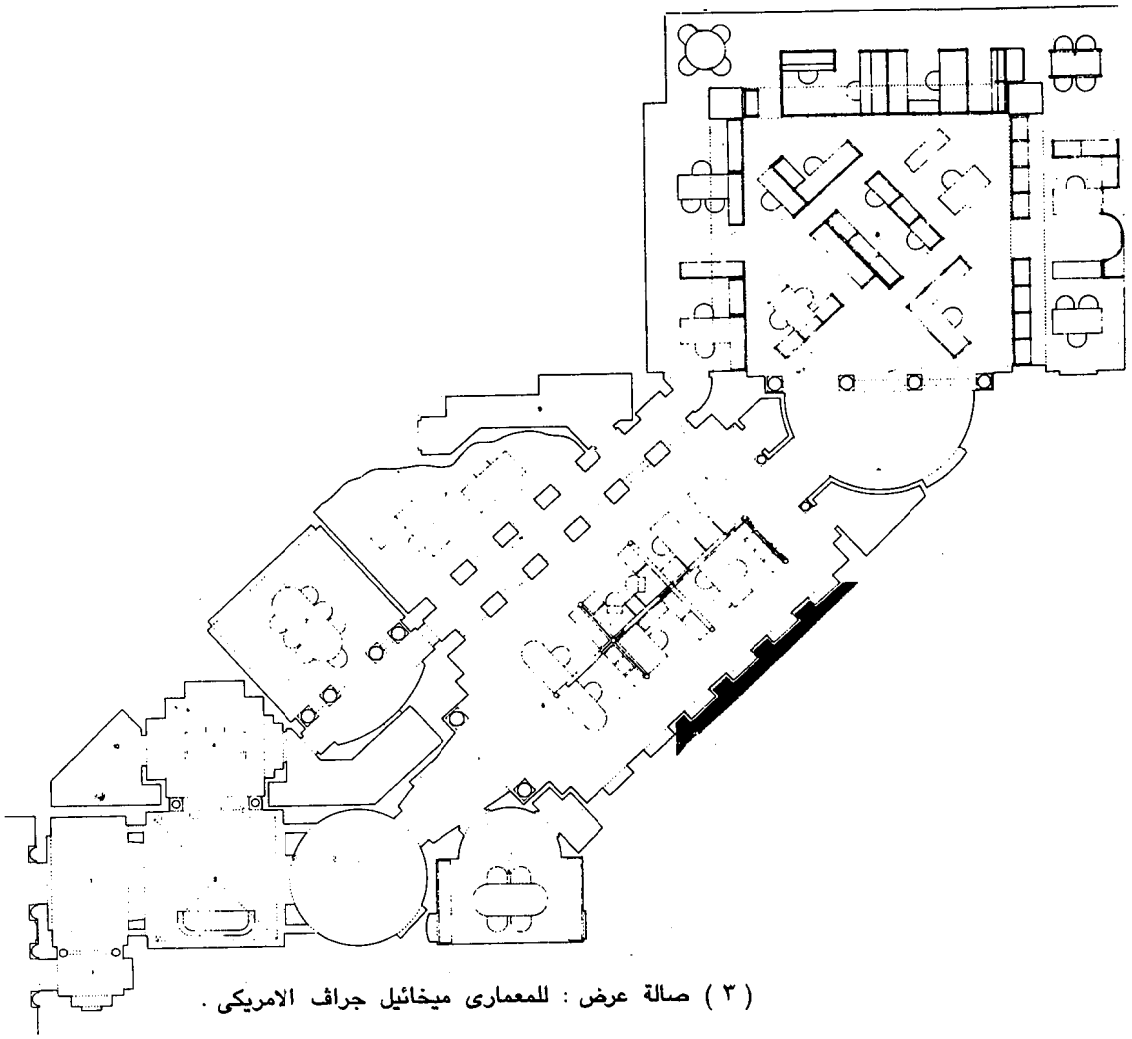

(٣) صالة عرض : للمعمارى ميخائيل جراف الامريكى .

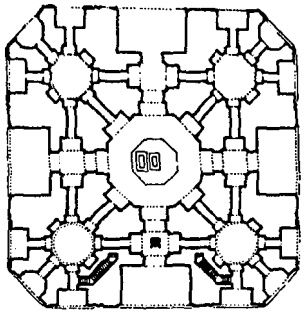

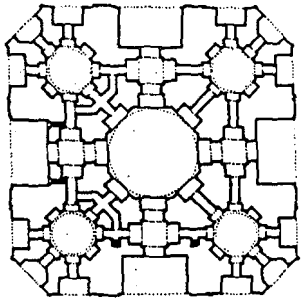

Figure 63. Plan of the Taj Mahal.

(٧) (٦)

مسقط أفقى لتاج محل . أجرا بالهند .

(٦) المعمارى فى الموقع

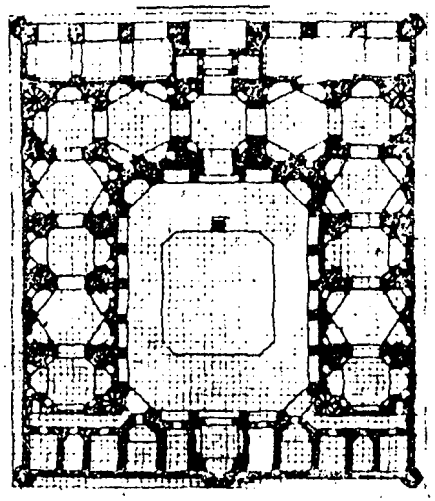

(٥) البائكه والشبكة

لوحة وجدت فى ازبكستان من فترة الامبراطورية المغولية والتى كان يستخدمها المعمارى لتنظيم المسقط وللتنفيذ

Plans were drawn on squared paper whose module corresponded to the ancient cubit. In the top picture the architect of the Mughal emperor Bābur is seen holding such a plan, and a few actual examples have survived from Uzbekistan (*above*). The module, which determines the dimensions of walls, windows, doors, etc., usually related to brick-sizes in simple ratios. (6, 7)

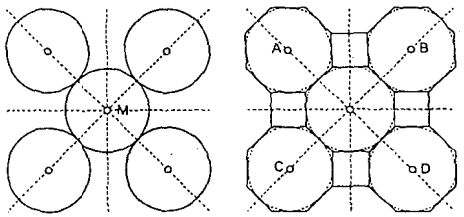

Geometrical analysis of the plan of the Taj Mahal.

(٨) التحليل الهندسى للمسقط الافقى لتاج محل

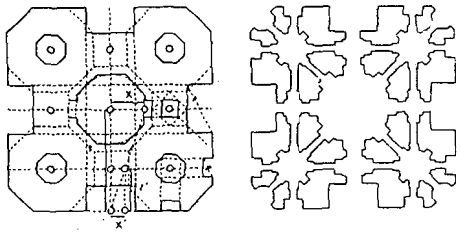

التحليل الفراغى لمساقط تاج محل ،
والذى اوضح فيه " تيتس بورخارت " عالم الفن الاسلامى العمليات الذهنية والبيانية التى تعبر عن فكره الوصول إلى الوحدة خلال تفاضل الاجزاء فى كل واحد ..

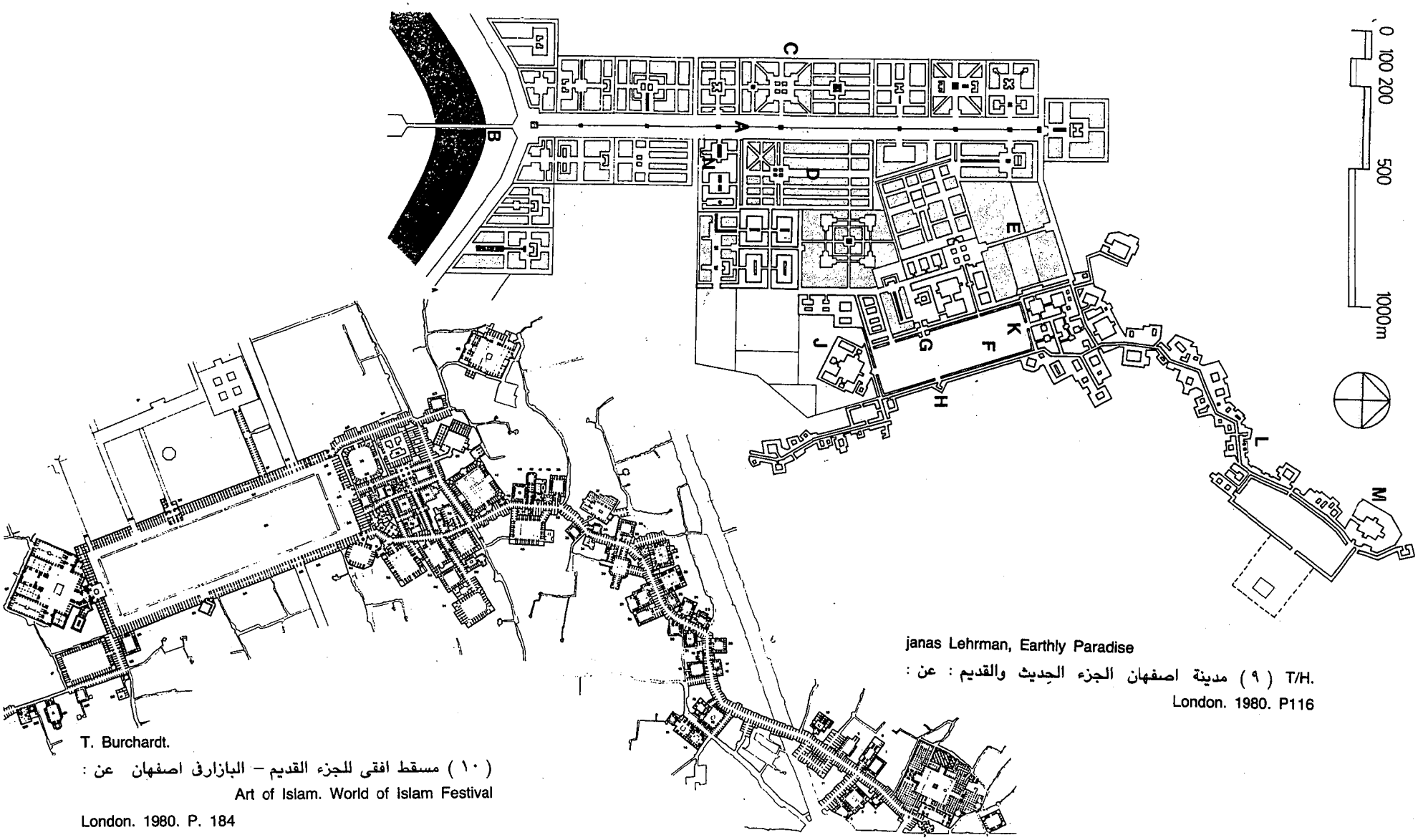

(٩) T/H. مدينة اصفهان الجزء الحديث والقديم : عن :
janas Lehrman, Earthly Paradise
London. 1980. P116

(١٠) مسقط افقى للجزء القديم – البازارق اصفهان عن :
T. Burchardt.
Art of Islam. World of Islam Festival
London. 1980. P. 184

٣ – اذا انتقلنا من المبنى الواحد إلى مجموعة من المبانى لوجدنا التباين أوضح . وأكثر أهمية بين مفهومى الموديل – والبائكة .. فعلى مقياس المدينة مثلا نرى فكرة استقلال التشكيل – والتزام التنظيم هنا تأخذ مفهوما رائعا يتعامل مع التشكيل من منطلق الفراغ العمرانى على مستوى المدينة – والتنظيم على مستوى الحركة والتوجيه وغير ذلك ومن محددات النظام والبناء بالمدينة .

مقابل ذلك ما نراه فى التنظيم الشبكى او المديولى للمدينة .. والذى يمكن ان نرى التباين بين النسقين فى مدينة واحدة هى مدينة اصفهان فالجزء الحديث (نسبيا) فيها نظم حول مفهوم المحاور والموديول .. أما الجزء القديم أو البازار .. والذى شيد من منطلق فكرة البائكة .. ومبدأ التوحيد .. نراه وقد اخذ كل جزء فيه موضعه . **وموقعه** واتجاهه . ولكن الكل يتوحد فى نسق وان لم يمتثل لمحور – أو لتكرار بسيط ساذج .. إلا أن الوحدة (unity) فيه تعكس ذلك التوازن والتمازج الرائع بين استقلال التعبير والتزام التنظيم .

اذا تركنا المخطط العام للمدينة ونظرنا لأجزاء هامة فيها مثل المسجد مثلا .. الذى تتكرر فيه " البائكة " لتكون اروقه الصلاه وغيرها من الفراغات – ونظرنا لامثلة مثل مسجد الشاه ، والمسجد الكبير على طرفى البازار بأصفهان – لوجدنا أن استقلال البائكة لم يتعارض مثلا مع الالتزام بالتوجه نحو القبله .. بل على العكس أعطى ثراء بالغا ووحدة اسمى للفراغ . أما المسجد الكبير فإن الانتظام الواضح فى اروقه الصلاه ليس بأى حال الغاء لاستقلال البائكه بل هو توازن مع ذلك الاستقلال .. ودليل ذلك ما نراه عند **الايونات** الاربعة الكبيره على جوانب الساحة الداخلية .. أو معالجات البائكات المتميزه والمتنوعة على حواف المسجد وحدوده .

نظرت حولى : حوائط المعرض تمتلئ بلوحات لاتختلف كثيرا عن لوحة صاحبنا ولكن الوجوه تتباين واستدرت فى الزحام لابحث عنه حتى اخبره بما ورد فى خاطرى بشأن المديول والبائكة ولكن لفت نظرى أن كثيرا من الطلاب قد أطلقوا لحاهم وارتدوا قمصانا طويلة اشبه بالجلاليب ، وأن كثيرا من الطالبات قد غطوا رؤوسهن بما سمى بالحجاب .. وعجبت للظاهرة والتى لم يكن لها اثر بالقسم حين غادرته منذ سنوات ، وتساءلت هل يدور فى خلد هؤلاء الشباب والشابات أن جوهر الاسلام الحنيف وهو التوحيد بالله العلى القدير له مدلول فراغى ، وماذا يكون وقع هذه الخواطر التى مرت بذهنى عابرة حول فكرة البائكة ومفهوم التوحيد فى الفراغ .. قطع تفكيرى وجه صاحبنا الذى لمحته فى الزحام ما زال قابعا بجوار مشروعه .. وسارعت فى ترتيب أفكارى استعدادا لطرحها عليه .

اولا : قلت لنفسى أن الفارق بين " المديول " و " البائكة " هو فارق بين مفهومين وليس بين شكلين ، المفهوم الاول صناعى فى منطقة ، علمانى فى فكره وتوجهاته ، وتراكمى أى تكرارى فى قانونه .
والمفهوم الثانى ، حضارى فى اصوله ومنطقة ، ايمانى فى فكره وتوجهاته ، وتجددى فى قانونه .

ثانيا : اذا لم يفهم صديقنا هذا الكلام فاننى سأطرحه بشكل آخر :
إن " المديول " هو تعبير عن الفكر والبيئة الصناعية . ومن ثم فانه يتبع قانونها وهو " اعادة انتاج الشىء " Reproduchion وهذا ما يفسر الاستغراق شبه الأعمى فى تكرار المديول على شبكة Grid بصورة مطلقة من الداخل والخارج .

اما " البائكه " فهى تعبير عن تكامل الانتاج والحضارة .. ومن ثم فهى تتبع القانون الذى يحكم كل المنتجات الحضارية .. وهو قانون " التجدد Regeneration) اى ان كل شىء ينتج فى اطار حضارى فيه جده وابداع واصاله originality حتى ولو اتحد مع مثيله من الاشياء الأخرى فى نسقه العام – وتستوى فى ذلك " البائكة " فى المبنى أو قطعه خزف ، او رداء شعبى .

ثالثا : وهذا ما هو هام لصديقنا .. هام لى ايضا ذلك هو موضوع النسق العام للمبنى او الـ Order
فان النسق العام – أو الـ Order الذى ينشأ عن المفهوم الموديولى خال من الحيوية الحضارية لانه ينشأ عن التكرار الافقى – أو الرأسى أو كليهما .. ولا يمكن للتكرار أن يولد حيوية فى الفراغ .. وانما الامر يحتاج لفكرة أو مبدأ موحدا يستقطب الاجزاء – ويجمعها فى وحدة اكبر من محض رصها ، او تجميعها حول فناء او على ممر ..

على المقابل فإن النسق العام – أو الـ Order الذى ينشأ عن مفهوم البائكه هو نسق يضج بحيوية هادئه ، تنبع كما أوضحنامن أن الفراغ يتشكل أصلامن نقطة موحدة ، او مفهوم للتوحيد تتفاضل منه هذه الاجزاء .. وأن الجزء دائما يسعى إلى التوحد مع الكل دون أن يفقد استقلاله الفراغى .. وفى ذات الوقت التزامه بالنسق العام أو البناء .

وحين وصلت الى هذه النقطة تنبهت إلى اننى قد لمست سطح أمر بالغ التعقيد .. وأن خواطرى لم تمس سوى مفهومى " الوحدة " Unit. والتوحيد " unity "كأساس للتميز بين المديول والبائكة ، أو بين الفكر الصناعى الذى أعطى ميلادا للعمارة الحديثة – وبين الفكر الحضارى الذى يمكن أن يعطى ميلادا مرة أخرى لعمارة اصيلة .. محلية .. كما سبق وأعطى ميلادا لكل الانجازات العبقرية على مر العصور .. ادركت أن هناك الكثير فى المفاهيم التى يجب أن ابلورها حتى تتكامل الصورة امام صديقنا ، مثل مفهوم " الداخل " والخارج – أو مفهوم " المركز والاطراف " .. وغيرها .. ولكننى عقدت العزم على ان اخبره بما وصلت اليه على كل حال .

قبل أن أصل إلى صاحبنا ، رأيت الجمع فى صالة المعرض ينحسر ليفتح دائرة كبيره فى الفراغ – واستيقظت من تأملات على دعوة رئيس القسم لتوزيع الجوائز على الاوائل .. ووقفت على بعد اتأمل واحاول اختزان خواطرى لمناسبة أخرى . جلس رئيس

القسم وعلى يمينه استاذ جليل من جيل الرواد وعلى يساره – ولدهشتى شاب فى جلباب ابيض ذو لحية قصيره .. ونادى رئيس القسم على الأول : ودخل صاحبنا بسرواله البلوچينز – ليتسلم الجائزة من الشاب ذى الجلباب الابيض : وكانت مواجهه بليغة بين رمزين :

وقلت فى سرى : بصره
وصاحبنا ذو السروال الازرق الجينز لم يفهم المديول .
وصاحبنا ذو الجلباب الابيض لم يفهم البائكة .

وإلى لقاء فى المعرض القادم

ISFAHAN, Royal Mosque (Masjid-i Shāh)
Safavid period, 1612–37

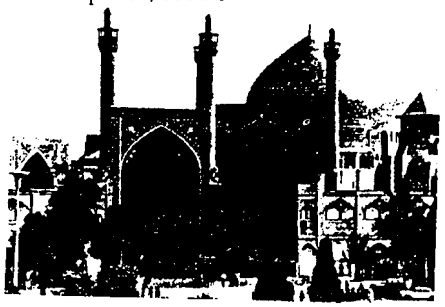

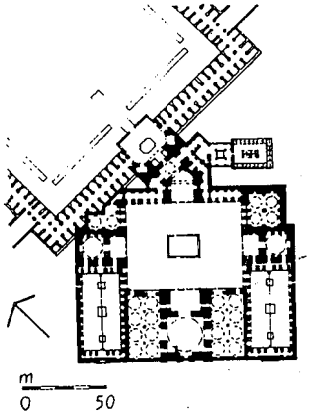

(١١) مسجد الشاه . اصفهان

ISFAHAN, Friday Mosque (Great Mosque)
'Abbāsid to Safavid periods, 8th–17th centuries

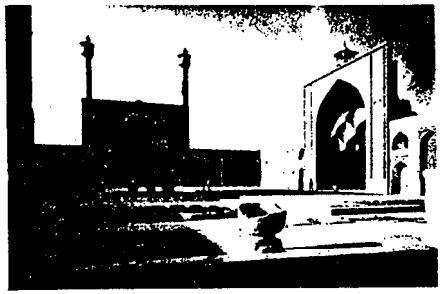

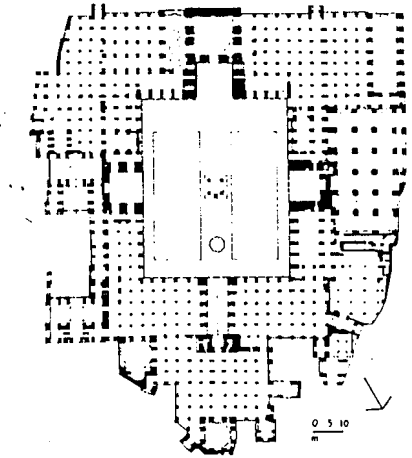

المسجد الكبير باصفهان
(١٢)

The Architecture of the Islamic World
Ea. Geoge Michell. T/H. N.Y. 1978
PP. 244,245